مطالعة الدفاتر والكتب ، واللهو بالالعاب

في المجتمعات قديماً

كانت المدن الاسلامية في الصدر الاول من الخلافة لا تخلو من بيوت خاصة او عامة يجتمع الناس فيها للحديث ، والانشاد ، والمطالعة ، واللهو ، كاجتماعهم بعد ذلك في بيوت القهوات لشرب البنّ ، والتدخين ، ومعاينة خيال الظلّ ، والاصغاء الى القاصّ وهو يقرأ بعض الحكايات كسيرة عنترة واشباهها . وليس لدينا اقلّ اشارة الى شيء من الدفاتر كانت تقيّد فيها الاخبار الجارية ويتداولها الجلّاس كالجرائد اليوم . ولا شك ان ما ذُكر منها في بعض الروايات لم تكن الا دفاتر علم وادب وفكاهة . وكانت الالعاب اكثر ما تكون من الشطرنج ، والنرد ، والقِرَق وهو لعب السُّدَر المعروف عند المتأخرين بالدريس . واقدم ذكر للدفاتر في القرن الاول للهجرة ورد في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني قال :

« كان عبد الحكم بن عمرو بن عبدالله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات وقِرقات ودفاتر فيه من كل علم . وجعل في الجدار اوتاداً . فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها . ثم جر دفتراً فقرأه . او بعض ما يُلعب به فلعب به مع بعضهم . فان عبد الحكم يوماً في المسجد الحرام اذا فتى داخل من باب الحناطين باب بني جُمح . عليه ثوبان ممصّران مدلوكان . وعلى اذنه ضغث ريحان . وعليه ردع خلوق[1] . فاقبل يشقّ الناس حتى جلس الى عبد الحكم بن عمرو بن عبدالله . فجعل من رآه يقول ماذا فعل عبد الحكم من هذا . أَلَم يجد احداً يجلس اليه غيره . ويقول بعضهم فاي شيء يقول له عبد الحكم . هو اكرم من ان يجبّه من يقعد اليه . فتحدث اليه ساعة ثم اهوى فشبك يده في يد عبد الحكم وقام يشقّ المسجد حتى خرج من باب الحناطين .

« قال عبد الحكم فقلت في نفسي : ما هذا سلّط الله علي منك . رآني معك

(١) في الاصل المطبوع « درع الخلوق » بتقديم الدال على الراء . وهو غلط . والردع هو اثر الطيب في الجسد . والخلوق نوع من الطيب اعظم اجزائه الزعفران .

نصف الناس في المسجد . وبعضهم في الحناطين » . حتى دخل مع عبد الحكم بيته . فعلق ردآءه على وتد وحلّل ازراره . واجترّ الشطرنج وقال : من يلعب . فبينا هو كذلك اذ دخل الابجر المغني . فقال له : اي زنديق . ما جآء بك الى ههنا ؟ وجعل يشتمه ويمازحه . فقال له عبد الحكم : اتشتم رجلًا في منزلي . فقال (الابجر) اتعرفه . هذا الاحوص . فاعتنقه عبد الحكم وحيّاه . فقال : اما اذا كنت الاحوص فقد هان عليّ ما فعلت . »[1]

وما اشبه هذا الوصف ببيوت القهوات في العصر الحاضر . ولا ندري ما يفرق عنها بيت عبد الحكم . اللهم سوى في تناول الاشربة . ولا يبعد جدًا ان يكون قد رُخص به بعد ذلك كما رُخص في الحانات . وكان بعض الملوك والنوّاب في الاسلام لا يستنكرون رائحة الدنانير من حيث جاءت . ولا يأنفون من الإنفاق على موائدهم وملابسهم من رسوم دور القمار ، والمسكرات ، والبغآء . ومن الغريب ان هذه الدفاتر والالعاب كانت تُعرض ايضاً في بعض المواخير وقصور القيادة . وقد اطرفنا التنوخي بوصف ضيافة بدمشق في دار منها لا نخال انه يوجد اليوم دار في الغرب تقاربها في الاحتفال بلذّة الاضياف والتوفر على خدمة شهواتهم . ولما دخل القوم الدار قال لهم صاحبها : « انا احب اليكم الركوب الى بعض البساتين للتفرج الى ان يدرك الطعام . ام اللعب بالشطرنج والنظر في الكتب . فقلنا اما الركوب فلا نؤثره . ولكن الشطرنج والنرد والدفاتر فاحضرنا ذلك . »[2]

ومن البيوت في بغداد التي اجتمع فيها للاضياف الكتب والالعاب بيت لمبارك شاه بن الحسين المَرورُذي الملقب فخر الدين . قال ابن الساعي « كان له دار مضيف فيها كتب وشطرنج . فالعلمآء يطالعون في الكتب . ومن لم يعرف العلم يلعب بالشطرنج . »[3] وكانت وفاة مبارك شاه سنة ٦٠٢ (١٢٠٥/٦ م)

---

١) الاغاني ٤ : ٥٣

٢) نشوار المحاضرة ١ : ١٦٥

٣) الجزء التاسع من الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (طبعة بغداد سنة ١٩٣٤) ، ص ١٨٧–١٨٨